ر. د.م.د: ISSN 2437-0819-رقم الإيداع القانوني:6068-2014

إنجازيّة الخطاب القرآني

مقاربة تداوليّة للفعل الكلاميّ الكلّي في القرآن الكريم

عابد لزرق

جامعة سيدي بلعبّاس

تاريخ الإرسال: 2018/05/04 تاريخ القبول: 2018/05/30

الملخص:

هذه الدراسة مقاربة في فلسفة اللغة تقوم على إبراز بعض مبادئ الاتّجاه التداولي مجسّدة فيما تطرحه نظرية الأفعال الكلامية من إجراءات لبحث الظاهرة اللغوية، وتحاول الكشف عن مفهوم تداوليّ أشار إليه عدد قليل من الباحثين، وهو الفعل الكلامي الكلّي في القرآن الكريم من خلال تطبيق بعض هذه المفاهيم والمبادئ التداولية، والخروج بذلك بنظرة شمولية عن إنجازية الخطاب القرآني، ولا تسعى إلى الكشف عن الأفعال الكلامية الجزئية المتضمّنة في الأساليب الخبرية والإنشائية، وفي الظواهر البلاغية والنحوية، وفي حروف المعاني...، وغير ذلك ممّا يكتنزه الخطاب القرآني بين جوّانيه من قوى إنجازية كلامية ثانوية.

الكلمات المفتاحية: فلسفة اللغة، التداولية، أفعال الكلام، الخطاب، القرآن الكريم.

Abstrat:

This study is an approach in the philosophy of language that aims to show some principles of pragmatics concretized in what speech acts theory proposes as procedures to look for the language phenomenon, and it tries to explore a pragmatic concept that few searchers have approached, it is that of the total speech act in the Holy Quran through the application of some of these concepts and pragmatic principles, and to come out later with a global vision on the performativity of the Quranic speech and it does not seek to discover the partial acts of language included in the constative and performative styles, in the rhetorical and grammatical phenomena, and as well as in the letters of the senses..., and so on of which the Quranic speech hides in its interior as secondary performative forces.

تقديم:

تكمن أهمية المقاربة التداولية للخطاب في أنّ دراستها للغة تكون أثناء الاستعمال الفعلي لها، لا دراسة مجرّدة من السياق والعوامل الخارجية الاجتماعية والنفسية المحيطة بإنتاج الكلام، كما أنّنا نكون مجبرين معها على الخوض فيما يقع وراء اللغة؛ أي القصد واستطلاع ما في ذهن المتكلّم أو الكاتب[1].

ويرى أستاذ علم اللغة "جورج يول" أنّ التحليل التداولي للخطاب يعدّ الأكثر تخصّصا لتركيزه على ما لم يتمّ قوله وما لم يُكتب ضمن الخطاب المراد تحليله[2]، و يصفه الباحث "عمر بلخير" بأنّه تحليل ماتع نظرا لما توفّره لنا التداولية من رحابة في الإجراءات والاتّجاهات العديدة التي فتحت آفاقا جديدة في التعامل مع الظاهرة اللغوية بالخروج من مأزق البحث اللغوي البنوي الذي أقصى كل ما هو خارجي عن بنية النصّ. ومع ذلك يعترف بأنّ هذه الرحابة التي تتميّز بها التداولية تشكّل مأزقا آخر للباحث، لأنّه يجد نفسه أمام ركام معرفي كبير من الإجراءات والمصطلحات والمفاهيم[3].

وتجدر الإشارة إلى أنّ المقاربة التداولية قد قامت، في نشأتها، على مفهوم الفعل اللغوي ونظرية أفعال الكلام، بل إنّ التداولية، في مبدئها عموما، كانت مرادفة لنظرية الأفعال الكلامية[4] كما يظهر ذلك عند مؤسّسها جون أوستين، وفيما يأتي بحث في أهمّ المفاهيم والطروحات التي ترتكز عليها نظريّة أفعال الكلام وفي الفعل الكلامي الكلّي الذي ينجزه الخطاب القرآني.

المرجعيات المعرفية لنظرية أفعال الكلام:

إنّ المناخ الفكري الذي نشأت فيه اللسانيات التداولية عموما، ونظرية أفعال الكلام بالتحديد، هو مناخ فلسفي محض، خصوصا وأنّ المؤسّسين الأوائل للتداولية ولأفعال الكلام جميعهم فلاسفة لغة من موريس، وأوستين، وسيرل، إلى بول غرايس...وغيره. فقد تشكّل مسار البحث في اللغة في العصر الحديث عبر مرجعيتين اثنتين؛ مرجعية فلسفية نابعة من بحوث فلسفة اللغة، ومرجعية علمية تكوّنت لها بفضل مجموعة من العلوم والحقول المعرفية كعلم الألسنية والسيميولوجيا والأنثروبولوجيا...وغير ذلك[5]، حيث تبحث فلسفة اللغة في الطرق التي يتمّ بها التعبير عن المعارف الذهنية وكيفية تبليغها عبر اللغة[6].

وقد بدأت هذه الأبحاث اللغوية الجديدة في التبلور بعد المنعطف اللغوي الكبير الذي شهده مجال الدراسات الفلسفية في القرن العشرين، حيث تحوَّل البحث في الظاهرة اللغوية من النظرة الفلسفية المنطقية إلى التحليل ومراعاة مبدأ الاستعمال، وإلى مقاربة اللغة بوصفها موضوعا وحيدا للتفلسف مع فلاسفة التحليل المعاصر، لا بوصفها فقط وسيلة للتفكير، فقد أدرك هؤلاء الفلاسفة أنّ «الأبحاث اللغوية عند السابقين من الفلاسفة لم تكن سوى تعبير عن رغبة في توضيح معاني اللغة كوسيلة لإيصال الخطاب الفلسفي»[7].

وقد تزامنت هذه البحوث مع «تزايد الاهتمام بدراسة اللغة وهيمنة الخطاب اللغوي داخل الأنساق المعرفية في العلوم الإنسانية»[8]، حيث تطوّرت على يد فلاسفة أمثال "غوتلوب فريجه"، و"برتراند راسل"، و"رودولف كارناب"، و"لودفيج فتجنشتاين"...إلخ، فقد رأى هؤلاء أنّ اللغة منظار ومدخل لرؤية الكون والوجود وفهم ظواهره ومشكلاته ومشكلات الفلسفة.

ويرى سيرل أنّ فلسفة اللغة تعدّ جزءا من فلسفة العقل، إذ يؤكّد على دور مقصد المتكلّم في منح ألفاظ اللغة دلالاتها وضرورة تحليل "المعنى" من خلال مقاصد المتكلّم[9]، فالمقصد يعدّ من بحوث فلسفة العقل لأنّه عملية ذهنية، ولذلك تعدُّ فلسفة اللغة حسبه جزءا من فلسفة العقل، إضافة إلى كون أفعال الكلام تمثّل شكلا من أشكال الفعل البشري التي يتحكّم العقل فيها.

في رحاب هذه البحوث الفلسفية اللغوية بشقيّها؛ الفلسفة التحليلية وفلسفة التحليل اللغوي، نشأت نظرية أفعال الكلام، حيث يؤكّد جون سيرل في تقديمه لكتابه (الأعمال اللغوية: بحث في فلسفة اللغة) على انتماء بحوثه إلى مجال فلسفة اللغة قائلا: «إنّ هذا الكتاب بحث في فلسفة اللغة لا في الفلسفة اللسانية. وليس (...) بحثا في اللسانيات، فاللسانيات تهدف إلى وصف البنى الصوتية والتركيبية والدلالية المتحققة في الألسن البشرية الطبيعية (...) فإنّ هذا العمل ليس بحثا في الألسن عموما مثل الفرنسية أو الإنجليزية أو السواحليّة، ولكنّه بحث في اللغة»[10].

وتعدّ الفلسفة التحليلية النبعَ الذي غرفت منه أفعال الكلام بوصفها أوّل اتّجاه تداولي، فقد أفاد فلاسفة مدرسة أكسفورد البريطانية، ومنهم مؤسّس أفعال الكلام

أوستين، من منجز فريجه وفتجنشتاين في فلسفة التحليل التي تعدّ بابا معاصرا وواسعا في البحث الفلسفي، لذلك لا يعنينا هنا أن نتطرق إلى كافة مفاهيمها، بل تعنينا بالأخصّ الجوانب التي هي على صلة مباشرة بأفعال الكلام وبنشأتها.

ولكن قبل ذلك تجدر الإشارة إلى أنّ أعلام فلسفة التحليل كانوا أنفسهم روّادا للفلسفة المنطقية، حيث حمل فريجه راية النزعة الوضعية المنطقية في بلد مولده "فيينا" قبل أن يؤسّس لمسار تحليلي لفلسفة اللغة[11]، وقد كان يُنظر إلى اللغة في الفلسفة المنطقية بأنّها وصف للعالم وتقرير للوقائع، والحكم على معانيها يكون وفق مبدأ الصدق والكذب فقط.[12]

غير أنّ النظر إلى الظاهرة اللغوية بدأ يتجرّد من هذا المفهوم مع الفلسفة التحليلية ويميل أكثر إلى البحث في قيمة الجمل دون حصرها في بناء دلالي ثابت، بل بربط هذه القيم اللغوية بواقعها المُسايِق لها، «...حيث تنتقل الحقيقة من طابعها الدلالي المتعلّق بقيمتي الصدق والكذب إلى طابعها التداولي المتعلّق بقيم الاستعمال والفعالية والتأثير»[13]، فيكون مدلول لفظة ما هو استعمالها في اللغة كما يقول فتجنشتاين، والاستعمال وحده الذي يمنح للألفاظ دلالاتها[14]، وهذا هو المبدأ الذي انبثقت منه أفعال الكلام.

وفتجنشتاين نفسه بدأ منطقيّا، وقد مرّ بمرحلتين: مرحلة البعد المنطقي الأرسطي، فقد كان ممّن حصروا المعنى الواحد في كلمة واحدة تشير إلى معنى واحد، ثمّ انتقل بعد ذلك إلى الفلسفة التحليلية ليبحث في تداولية المعنى من خلال نظرية الألعاب اللغوية التي أسّسها، حيث يُوصف الشيء الواحد بكلمات متعدّدة، والكلمة تدلّ على أشياء متعدّدة[15] حسب السياق والاستعمال، كأنّها لعبة اجتماعية تمارسها اللغة. وفي أبجديات الفلسفة المعاصرة يشار إلى المرحلة الأولى في فكره بـ [فتجنشتاين 1]، ويُمثَّل لها بكتابه (رسالة منطقية فلسفية)، بينما يشار إلى الثانية بـ [فتجنشتاين 2]، وقد أوجز أراءه التحليلية فيها في كتاب (تحقيقات فلسفية).

على أنّه يجب التنبيه أيضا إلى أنّ فلاسفة التحليل، وعلى الرغم من توافقهم في الاهتمام الكبير بالظاهرة اللغوية، قد اختلفوا في اتجاهات البحث فيها، كما اختلفت نظرتهم إلى اللغة بين من اهتمّ باللغة المثالية الاصطناعية وعدّها الحامل الحقيقي للقضايا الفلسفية العلمية لكونها خالية من الأخطاء[16]، ومنهم برتراند راسل قبل أن يتحوّل إلى

الفلسفة الواقعية، وبين من أولى اهتمامه كلّه باللغة العادية الطبيعية؛ لغة اليومي والواقع والاستعمال، وفي مقدّمتهم فتجنشتاين الذي انتقد مبادئ الوضعانية المنطقية وأسّس لباراديغم جديد في الفلسفة هو فلسفة اللغة العادية بالبحث في متغيرات الدلالة تبعا لمتغيّرات السياق والاستعمال العادي بين البشر، لكونه رأى أنّ المشكلات الفلسفية هي مشكلات ذات صبغة إنسانية قبل كل شيء.

وقد رأى "راسل" أنّ المشكلات الفلسفية تبدأ من التحريفات والأخطاء التي تطرأ على لغة الحياة اليومية، ففكّر في ضرورة أن يبني الفلاسفة لغة جديدة كفيلة بحمل مفاهيم الفلسفة دون تحريف وتكون أكثر ملاءَمة لوقائع العالم، وهنا حدث معه التحوّل من الفلسفة المثالية إلى الواقعية. لكن فتجنشتاين لم يجد ضرورة من بناء لغة جديدة مناسبة لحمل المفاهيم الفلسفية كما دعا فلاسفة اللغة المثالية إلى ذلك، على تقدير أنّه رأى وجود لغة واحدة فقط هي اللغة العادية اليومية التي تستخدم في كافة التواصلات وبناء المفاهيم[17]، وفلاسفة اللغة المثالية يخالفون هذا التوجّه.

وبذلك صوّب فتجنشتاين اهتمامه إلى اللغة العادية الجارية يوميا على ألسنة البشر، ورأى أن الكلمات والجمل أشبه ما تكون بأدوات ووسائل نستخدمها في كلّ مواقف الحياة وفق استعمالات متنوّعة، وهي لا تحمل معانيَ ثابتة، وبذلك «انتقل من مجال الجانب التصوّري للغة إلى مجال تحديد طابعها الوظيفي العملي»[18]، حيث أدرك أنّ الكلمات تكتسب معانيها وفق استعمالاتها المتنوّعة في الحياة اليومية، ودعا إلى تطبيق المنهج التحليلي على اللغة العادية، والبحث في تراكيبها وتحليلها إلى جزئيات بدل النظرة الكلية المنطقية الثابتة، مستمدّا نظرته هذه من تحليلات فريجه وراسل للمكوّنات التركيبية والدلالية للغة.

وفي سياق هذه البحوث الفلسفية التي قام بها أشار فتجنشتاين إلى عدّة مفاهيم مرتبطة مباشرة بالتداولية وبأفعال الكلام، كمفهوم المعنى الذي يحدّده الاستعمال، وأشار إلى السياق، والحدث الاجتماعي للغة. كما تحدّث عن وجود أصناف من الجمل لا تصف العالم ولا تعبّر عن الوقائع الخارجية، فهي من قبيل الأمريات والتعهّدات....إلخ، حيث يقول مشيرا إلى ذلك في الفقرة 23 من تحقيقات فلسفية: «كم صنفا من الجمل يوجد إذاً؟

الإقرار والسؤال والأمر، مثلا؟ - هناك عدد لا يحصى من هذه الأصناف: عدد لا حصر له من أصناف الاستعمالات المختلفة لكلّ ما نسمّيه "علامات" وألفاظا" و"جملا"»[19].

هذا التساؤل والمفهوم الأخير هو مدخل مباشر للفعل الكلامي تلقّفه منه فلاسفة مدرسة أكسفورد وجون أوستين تحديدا، إضافة إلى المفاهيم الفلسفية اللغوية السابقة التي أشار إليها فتجنشتيان مثل مفهوم ألعاب اللغة، ليؤسّس بذلك أوستين لنظرية فلسفية لغوية جديدة، تحت مقولته الشهيرة (كيف ننجز الأشياء بالكلمات)، عُرِفت باسم "نظرية أفعال الكلام"، لتكون منطلقا جديدا في بحث الظاهرة اللغوية، وسنتناول في ما يلي مفهوم الفعل الكلامي.

في مفهوم الفعل الكلامي:

يصنّف الفعل ضمن أقسام الكلام الأساسية في أي لغة لأهميته ودوره الفعّال في اكتمال عملية التواصل، حيث يستعمل في العربية للدلالة على حدوث الشيء ووقوعه، وله تقريبا نفس الاستعمال في الإنجليزية، غير أنّ الفعل فيها كصيغة يسمّى Verb، وكحدث ووقوعه يسمّى Act[20]، فهو «يحتلّ مكانة الصدارة في أي إبلاغ، سواء أكان شفويا أم كتابيّا. وإدراك كيفيات استعمال الفعل بدّقة يساعد على فهم المسموع والمقروء، كما يساعد على تأليف الكلام بطريقة سليمة»[21]، ومن ثمَّ فهو يشارك بقيةَ العناصر المكوّنة للكلام في تحقيق الإفادة والتواصل بين المتخاطبين.

وقد ارتبط المعنى المعجمي للفعل بالعمل والحدث وزمن وقوعه، كما جاء في لسان العرب قول ابن منظور: «الفعل كناية عن كل عَمَلٍ متعدٍّ أو غير متعدٍّ»[22]، وفي القاموس المحيط للفيروزآبادي: «الفِعْلُ، بالكسر: حركةُ الإنسانِ، أو كناية عن كل عَمَلٍ متعدٍّ»[23]، وجاء في كتاب التعريفات للجرجاني أنّ «الفعل هو الهيئة العارضة للمؤثِّر في غيره بسبب التأثير أولا، كالهيئة الحاصلة للقاطع بسبب كونه قاطعا، وفي اصطلاح النحاة ما دلّ على معنى في نفسه مقترن بأحد الأزمنة الثلاثة»[24]. والمفهوم من هذا النص أنّ الفعل ما كان له أثر بعد وقوعه، وهو عند النحاة كلمة تدل على معنى مرتبط بأحد الأزمنة الثلاثة.

ونجد سيبويه قد حدّد مصطلح الفعل في (كتابه) بأنه «...أمثلة أُخذت من لفظ أحداث الأسماء، وبنيت لما مضى، ولما يكون، ولما يقع، وما هو كائن لم ينقطع»[25]، وهذا التعريف يدلّ دائما على الحدث والأثر.

وبناء على ما سبق يكون مصطلح الفعل الكلامي قد وافق المفهوم المعجمي للفعل من حيث معنى الحدوث والتأثير، فهو «إحداث أمر ذي معنى قصدا»[26]، يتجسد في الخطاب الواقعي المتداول بين أفراد المجتمع، والذي يحمل مقاصد المتكلم إلى المتلقي بغية التأثير فيه أو إقناعه.

فالفعل الكلامي هو الحدث الواقع بالكلام والمنجز به في سياق محدّد لأنّ الكلام تحقيق لفظي للمعنى، فالكلام هو أن نفعل، وبمعنى واضح هو تدشين معنى، وممارسة فعلية له بالإنجاز[27]، حيث تتحوّل اللغة بأصواتها المنطوقة وحروفها المكتوبة إلى أفعال في العالم الواقعي بتعبير جون سيرل حين يصف عمل اللغة بأنّ الكلام فيها هو نوع من الفعل الإنساني، ويقول مؤكّدا على أنّنا نحصل بفضل علم الأصوات الفيزيائي على علم الدلالة: «إن النفخة الصوتية التي تخرج من فمي تكون عبارة، أو سؤالا، أو شرحا، أو أمرا، أو نصيحة، أو طلبا، أو وعدا، وهلمَّ جرّا، أو مجموعة كبيرة من الإمكانات الأخرى، (...) والشيء الخليق بالملاحظة الآن هو أنّنا نحصل من النفخة الصوتية على هذه الخصائص الدلالية المدهشة، التي لا تتضمّن فحسب الظواهر اللغوية والبلاغية، وإنّما تتضمّن أيضا الظواهر السياسية والأدبية والأنواع الأخرى من الظواهر الثقافية. فكيف تعمل اللغة؟ وكيف نحصل من الفيزياء على العلم الدلالة؟ تلك هي المسألة التي أناقشها...»[28].

وبالنسبة للفعل الكلامي في حدّ ذاته، فهو ترجمة للمصطلح الإنجليزي (Speech act) وللفرنسي (Acte de parole)، ويعرف أيضا بالفعل اللغوي الذي هو ترجمة لمصطلح (Acte de langage) من اللغة الفرنسية. كما فضّل فيلسوف التأويل الفرنسي "بول ريكور" تسميته بفعل الخطاب (Acte de discours) ليُظهِر خصوصية لفظ الكلام Speech مقارنة مع لفظ اللغة langage[29]، وكلها مصطلحات يراد بها المفهوم اللغوي الذي وضعه أوستين ركيزة لنظرية لغوية تداولية جديدة منبثقة عن فلسفة التحليل اللغوي كما رأينا.

غير أنّ جون لاينز يرى أنّ ثمّة تضليلا في مصطلح فعل الكلام في هذه النظرية لكونه يرمي بثقله الدلالي ويحيل إلى الجانب الصوتي المادّي من اللغة؛ أي إلى الكلام المنطوق، بينما يُعدّ مصطلح "الفعل اللغوي"، حسبه، أنسب وأفضل بكثير منه لأنّه يشمل القوى الإنجازية المترتّبة عن لغة الكتابة ولغة الكلام مع بعض؛ أي اللغة في عمومها، ولكن طالما

أنّ مصطلح "فعل الكلام" استُخدِم على نطاق واسع بعد أبحاث أوستين فقد رضي به لاينز وغيرُه، وفضّلوا عدم استبداله[30].

على أنّنا نجد جون سيرل نفسه يستدرك هذا الأمر بمحاولته إزالة كل لبس حول مقاربته الفلسفية للغة التي وسمها البعض بأنّها مقاربة للكلام بدلا من اللسان من منطلق الثنائية السوسيرية، إذ يؤكّد سيرل على أنّ مقاربته للغة مقاربة شاملة بقوله: «قد يذهب في الاعتقاد أيضا أن مقاربتي هي مجرّد دراسة "للكلام" بدلا من "اللسان" بالمعنى الذي أقرّه فرديناند دي سوسير للمصطلحين. لكنّي أؤكّد في المقابل أنّ دراسة ملائمة للأعمال اللغوية هي دراسة للسان. وهذا صادق لسبب مهمّ يتجاوز ادّعائي بأن التواصل يستدعي بالضرورة الأعمال اللغوية. فعندي "كل ما يمكن أن يُعنى يمكن أن يُقال" هي قضية عن اللغة صادقة تحليليّا».[31]

ويعرّف دومينيك مانغونو الفعل الكلامي في قاموسه اللغوي (المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب) بأنّه «الوحدة الصغرى التي بفضلها تحقق اللغة فعلا بعينه (أمر، طلب، تصريح، وعد....) غايته تغيير حال المتخاطبين، إنّ المتلفظ المشارك coénonciateur لا يمكنه تأويل هذا الفعل إلا إذا اعترف بالطابع القصدي لفعل المتلفظ»[32]، ومن ثمَّ فإن نجاح الفعل الكلامي مرتبط، حسبه، باكتمال وظيفتين هما: الإنجازية والقصدية.

وعلى هذا الأساس، فإن فعل الكلام ليس إصدار أصوات أو تلفظ بها فقط، بل فحواه أنّه كلُّ ملفوظ ينهض على نظام دلالي إنجازي تأثيري، فضلا عن ذلك فإنّه «...يعدُّ نشاطا ماديّا نحويا يتوسل أفعالا قولية Actes locutoires لتحقيق أغراض إنجازية Actes illocutoires (كالطلب، والأمر، والوعد، والوعيد...إلخ)، وغايات تأثيرية Actes Perlocutoire تخصُّ ردود فعل المتلقي (كالرفض والقبول). ومن ثم فهو فعل يطمح إلى أن يكون فعلا تأثيريا، أي يطمح إلى أن يكون ذا تأثير في المخاطَب، اجتماعيا أو مؤسساتيا، ومن ثمّ إنجاز شيء ما»[33].

فقيمة جملة ما ليست محصورة في بنائها الدلالي فقط، وإنما في ارتباط هذه الجملة بواقعها والسياق المحيط بعملية إنتاجها، حيث ننتقل لإدراك حقيقتها من طابعها الدلالي إلى طابعها التداولي المتعلّق بقيم الاستعمال والفعالية الإنجازية والتأثير، كون أنّ مجال اهتمام التداولية ليس مرتبطا ببنائية الجملة ونحويتها، بوصفها معطى لسانيّا، بل بوصفها

وحدة لغوية، مجال التحليل التداولي فيها محصور في لحظة قذفها إلى الواقع، وقصدية المتكلّم هي التي تدفع بدلالتها إلى إنجاز فعل هو فعل الكلام[34].

ويمكن القول بأنّ الفعل الكلامي هو وحدة لغوية قاعدية في الخطاب، لا يمكن أن يصبح علامة إلا ضمن التجسيد اللّغوي في كليته الخطابية، وهو بهذا الاعتبار ليس فعلا أحاديّ المعنى ولا شفافا في أغلبه، بل للمقام والسياق دور أساسي ووظيفي في عملية إنتاجه وتأويله[35].

إنّ فعل الكلام، بهذا المنظور، يُحقّق هدف التداولية المتمثل في الإنجاز الكلامي، سعيا إلى التأثير به باستغلال ظروف الحدث الخطابي، ولذلك فإنّه وسيلة للتعبير عن المقاصد والغايات والوصول إلى الأشكال اللغوية المنجزة خلال عمليات التخاطب، على أساس «أنّ الوحدة الدنيا للتواصل الإنساني، ليست هي الجملة ولا أيّ تعبير آخر، بل هي استكمال (إنجاز) بعض أنماط الأفعال»[36]، وهو ركيزة ونواة أساسية لكثير من الأعمال التداولية، وهذا هو الاعتقاد الذي بنى عليه أوستين نظريته للأفعال الكلامية.

الفعل الكلامي لدى أوستين:

بُنيت دراسة الأفعال الكلامية لدى فيلسوف اللغة الإنجليزي جون أوستين على فكرة أساسية مفادها أنّ وظيفة اللّغة لا تقتصر على تقرير الوقائع أو وصفها بالصدق أو بالكذب فقط، وإنّما تتجاوز ذلك إلى «...تحويل الأقوال التي تصدر ضمن معطيات سياقيّة إلى أفعال ذات صبغة اجتماعية»[37]، ولهذا تعمّق في إنجاز فلسفة دلالية تهتمّ بالمضامين وبالمقاصد التواصلية الاجتماعية، وتختلف عمّا قدّمه علماء الدلالة اللغويون، وخصوصا البنويّون منهم، فقد كان أوستين يلحّ على القيمة التداولية لعبارات لغوية كثيرة تستخدم في اللغة الانجليزية، وربّما في كلّ اللّغات، كما ألحّ على مفهوم القصدية "Intentionnalité" في فهم كلام المتكلّم وفي تحليل العبارات اللغويّة.

وقد تجلّت أفكاره في محاضراته التي ألقاها في جامعة هارفارد Harvard سنة 1955م، والتي جُمعت في كتاب موسوم بـ: "How to do things with word" أو "كيف ننجز الأشياء بالكلمات"، ونشرت بعد وفاته سنة 1960م.

وأهم ما قام به أوستين هو التمييز بين نوعين من الأقوال:

أ - الأقوال المتمثلة في الأفعال الإخبارية "constative": وظيفتها وصف وقائع العالم الخارجي، ويحكمها مبدأ الصدق والكذب.

ب – الأقوال المتمثلة في الأفعال الإنشائية "performative": تنجز بها الأفعال أو تؤدّى، وهي لا توصف بصدق ولا بكذب، بل يحكمها معيار التوفيق والإخفاق والإنجازية[38].

وتنقسم الأفعال الإنشائية بدورها إلى قسمين:

أ- أفعال إنشائية صريحة "performatifs explicites": وهي تشمل العناصر الدالّة على الإنشاء، وتأتي على شكل الفعل الدالّ على الزمن الحاضر، وهو مرتبط بفاعل مفرد مثل: آمرك، أحذّرك.

ب- أفعال إنشائية غير صريحة، أو إنشائيات أوّلية "perfomatifs primaires": وتحقيقها يتوقف على عوامل السياق[39].

ويرى أوستين أنّ هذه الأفعال الإنشائية لا تكون موفّقة وناجحة إلا إذا تحققت لها شروط الملاءمة والسياق، «...فإذا لم تتحقق كان ذاك إيذانا بإخفاق الأداء misfire، وشروط قياسية regulative، وهي ليست لازمة لأداء الفعل، بل لأدائه أداء موفقا غير معيب»[40]، وأيّ إخفاق في تحقّقها هو إساءة لأداء الفعل الكلامي ذاته.

هذا وقد توصل أوستين في آخر مرحلة من مراحل أبحاثه في هذا المجال إلى تقسيم الفعل الكلامي الكامل إلى ثلاثة أفعال فرعية على النحو الآتي:

أ- فعل القول أو الفعل اللغوي acte locutoire:

وهو يعني النشاط اللغوي الذي يشمل الفعل الصوتي والتركيبي والدلالي، أي مجرد قول شيء.

ب- الفعل المتضمن في القول acte illocutoire:

وهو الفعل الإنجازي الحقيقي الذي يدل على عمل، حيث يعدّ هذا الصنف أساس النظرية برمتها، ولذلك اقترح أوستين تسمية الوظائف اللسانية الثاوية خلف هذه الأفعال بالقوى الإنجازية ومن أمثلة ذلك: السؤال، إجابة سؤال، إصدار تأكيد أو تحذير، وعد، أمر، شهادة في محكمة، عقد زواج...إلخ.

ج- الفعل الناتج عن القول acte perlocutoire:

وهو فعل الأثر الذي يحدثه الفعل المتضمن في القول لدى السامع أو المخاطب، كالإقناع، التضليل، الإرشاد...إلخ[41].

وبناء على ما ذكر، يمكن القول بأن ما قدّمه أوستين لم يكن كافيا لتأسيس نظرية متكاملة لأفعال الكلام، لكنه كان مناسبا ليصبح نقطة انطلاق ومرحلة تأسيس لها بتحديده لعدد من المفاهيم الأساسية فيها، وبخاصة مفهوم الفعل الإنجازي الذي أصبح تصوّرا محوريا في هذه النظرية[42]، ثمّ قام جون سيرل بعده باستدراك عدّة مفاهيم عند أستاذه أوستين وإضافة أخرى، وأسهم إسهاما بارزا في تطوير نظرية أفعال الكلام.

جهود جون سيرل في تطوير نظرية أفعال الكلام:

لقد انصبّ اهتمام سيرل الأكبر على الفعل المتضمن في القول "Acte illocutoire" وجعله أساسا لتحليله، وقام بالتمييز داخل الجملة بين ما يتصل بالفعل المتضمّن في القول في حدّ ذاته، وهو ما يطلق عليه تسمية "واسم القوة المتضمنة في القول" Marqueur de force illoctionaire، وما يتّصل بمضمون العمل، وهو ما يسمّيه بـ "واسم المحتوى القضوي" Marqueur de contenu propositionnel[43]. كما اقترح تصنيفا للأفعال الكلامية بديلا عن تصنيف أوّلي قدّمه أوستين، واستند فيه على عدد من المعايير والشروط، حيث جاء هذا التصنيف في خمسة أبواب عامّة هي:

أ- التقريرات أو الإخباريات Assertifs:

والغرض الإنجازي فيها هو وصف المتكلم واقعة معينة من خلال قضية ما، وأفعال هذا الصنف كلها تخضع لمعيار الصدق والكذب، واتجاه المطابقة فيها يكون انطلاقا من الكلمات إلى العالم "words-to-word"، وشرط الإخلاص فيها يتمثل في النقل الأمين والتعبير الصادق عن الواقعة.

ب- التوجيهات أو الأمريات Directifs:

وغرضها الإنجازي محاولة المتكلم توجيه المخاطب إلى فعل شيء معين، واتجاه المطابقة فيها من العالم إلى الكلمات "word-to-words"، وشرط الإخلاص فيها يتمثل في الرغبة الصادقة، ويدخل في هذا الصنف الأمر، والنصح، والاستعطاف والتشجيع.

ج- الالتزاميات أو الوعديات Promissifs:

وغرضها الإنجازي هو التزام المتكلم بفعل شيء ما في المستقبل، واتجاه المطابقة فيها يكون من العالم إلى الكلمات، وشرط الإخلاص هو القصد، ويدخل في هذا الصنف الوعد، والعهد، والوصية...إلخ.

د- التعبيريات أو البوحيات Expressifs:

وغرضها الإنجازي هو التعبير عن الموقف النفسي تعبيرا يتوافر فيه شرط الإخلاص، وليس لهذا الصنف اتجاه مطابقة، فالمتكلم لا يحاول أن يجعل الكلمات مطابقة للعالم، ولا العالم مطابقا للكلمات، ويدخل في هذا الصنف الشكر، والتهنئة، والاعتذار، والمواساة...إلخ.

هـ- التصريحات أو الإعلانيات Déclarations:

والسمة المميّزة لها أن أداءها الناجح يتمثّل في مطابقة محتواها القضوي للعالم الخارجي، فإذا أدّيت، مثلا، فعل إعلان الحرب أداء ناجحا فالحرب معلنة. وثمّة سمة أخرى مميزة لها، وهي أنها تحدث تعبيرا في الوضع القائم، فضلا عن أنها تقضي عرفا غير لغوي، واتجاه المطابقة فيها يكون من الكلمات إلى العالم، ومن العالم إلى الكلمات، ولا تحتاج إلى شرط إخلاص كما في الالتزاميات مثلا.[44]

وقد رأى سيرل أنّ إنجاز هذه الأفعال يتّم من خلال أفعال فرعية هي:

1- فعل التلفظ (الصوتي والتركيبي).

2- الفعل القضوي (الإحالي والإسنادي).

3- الفعل الإنجازي (إنجاز أعمال متضمنة في القول).

4- الفعل التأثيري (الأثر الحاصل نتيجة عمل ما يُرصَد في سلوك المخاطب وفعله وفكره)[45].

الأفعال الكلامية المباشرة وغير المباشرة عند سيرل:

ميّز سيرل بين نوعين من أفعال الكلام:

1- فعل كلامي مباشر "Acte de langage direct"، تتطابق قوته الإنجازية مع مراد المتكلم، فيكون ما يقوله مطابقا لما يعنيه.

2- فعل كلامي غير مباشر "Acte de langage indirect"، تخالف قوته الإنجازية مراد المتكلم[46].

ويوضح الفعل الإنجازي غير المباشر من خلال المثال الآتي: (يقول الرجل لرفيق له في الطاولة: هل تناولني الملح؟).

فالمتلفظ بهذه الجملة لم ينجز فعلا كلاميا واحدا، بل أنجز فعلين كلاميين، فمن خلال إنجازه لفعل الاستفهام أنجز فعل الالتماس أيضا. ويسمّي سيرل الأوّل فعلا ثانويّا "acte illocutoire secondaire"، والثاني فعلا أوليّا "acte illocutoire primaire"[47]. فقد تمثلت القوة الإنجازية الأصلية للفعل في الاستفهام الذي يحتاج إلى جواب، ودليله أداة الاستفهام "هل" التي تتصدر الجملة، غير أن قصد المتكلم ليس الاستفهام، وإنّما هو طلب مهذّب يؤدّي معنى فعل إنجازي آخر مباشر هو "ناولني الملح"[48].

وبهذا، يكون المعنى الحرفي هو من خصائص الجملة وهو فعل كلامي مباشر، أمّا المعاني الأخرى فهي أفعال كلامية غير مباشرة تُدرك من سياق الكلام ومقام التخاطب. والهيئة التركيبية لهذه الأفعال الإنجازية غير المباشرة عند سيرل لا تدلّ على زيادة في المعنى الإنجازي الحرفي، وإنما الزيادة فيما أطلق عليه اسم "معنى المتكلم"[49]، فالجهاز النظري المطلوب لتفسير الجزء غير المباشر لأفعال اللغة يقوم على المبادئ العامة للتعاون العرفي بين المتكلّم والمستمع، كما قعّد بول غرايس لذلك، وعلى خلفية إخبار متقاسمة بين المتكلم والسامع تجعل الفعل الكلامي ينزاح من إنجازيته المباشرة إلى إنجازية أخرى غير مباشرة[50].

وبهذا فقد كانت لأعمال "أوستين" و"سيرل" أهمية بالغة في تطوّر دراسة الأفعال الكلامية وقيامها نظرية تُعنى بدراسة الكلام بوصفه نوعا من الفعل الإنساني.

في مفهوم الفعل الكلامي الكلّي:

ممّا يؤخذ من نقص على منجز "جون أوستين" أنّه لم يخرج بمفهوم أفعال الكلام إلى الشمولية، ولم يصنّفها من منطلق نصّي خطابي كلّي، حيث وقف في تحليلاته على جمل بسيطة من اللغة الإنجليزية، وحتى "جون سيرل" نفسه لم يكن جازما مع هذا الأمر، رغم أنّه أشار في (الأعمال اللغوية) إشارة عابرة إلى ذلك بقوله: «...لا تحدّد دلالة الجملة في كلّ الحالات على نحو أحاديّ العملَ اللغوي المنجز عند إلقاء تلك الجملة بعينها لأن المتكلم قد يعني أكثر مما يقوله بالفعل، (...) ولذلك فإنّه من الممكن مبدئِيّا لكل عمل لغويّ يُنجز أو يَقبل الإنجاز أن تحدّده على نحو أحاديّ جملةٌ معيّنة (أو مجموعة من الجمل)، وذلك على

اعتبار التسليم بأنّ المتكلّم يعني ما يقوله حرفيّا وأنّ السياق مناسب»[51]، ونلاحظ هنا كيف يؤكّد على إمكانية تفاعل مجموعة من الجمل لتشكيل فعل كلامي واحد ناجحٍ أدائيّا.

ويعود الفضل للألسني الهولندي "فان دايك"، وهو واحد من أبرز الذين أخرجوا اللسانيات من دائرة الاهتمام بالجملة إلى النصّ والخطاب، أنّه قد أشار، وفي سياق هذه النظرة النصّية، إلى مفهوم الفعل الكلامي الكلّي الشمولي، حيث يقول في شرح ذلك: «إنّ أفعال الكلام كالدلالات تنتظم وتقترن مع أفعال أخرى لكي تشكّل أفعالا مركّبة ومعقّدة ومتواليات من الأفعال»[52]، ويقول أيضا: «...مثل فعل الكلام هذا يُنجز بواسطة متوالية من الأفعال الكلامية يجوز أن نطلق عليه الفعل الكلامي الكلّي أو الشامل»[53]، إذ يرى أن أفعال الكلام تشكّل في النصّ وفي الخطاب مجموعة من المتواليات تؤدّي إلى فعل كلاميّ كلّي، تماما مثلما تتفاعل الجمل النحوية وتنتظم لتشكيل نصّ ما.

فأفعال الكلام الجزئية تتواشج فيما بينها لتحقّق فعلا كلاميّا كليّا يهدف إليه المتكلّم من كلامه كاملا، إذ لا يكفي أن ندرس النصوص من جهة بنياتها فحسب، بل يجب دراستها أيضا من جهة وظيفتها[54]. وطرْح فان دايك هذا يعدّ نقلة حقيقية ونوعية في نظرية أفعال الكلام؛ من (الفعل الكلامي الجزئي) الذي تمّ على يد أوستين وتلامذته، إلى (الفعل الكلامي النصّي)، والذي يُنظر فيه إلى النصّ على أنّه سلسلة أفعال كلام متوالية تخدم فعلا كلاميّا شموليّا[55].

وحدة البناء في النصّ القرآني:

إنّ ما يدفعنا إلى القول بالفعل الكلامي الكلّي في القرآن الكريم هو أنّ هذا الأخير قد نزل نصّا واحدا وجملة من السماء السابعة إلى السماء الدنيا، وما تجزيء سوره وآياته، خلال سنوات البعثة المحمّدية، إلا مراعاة لظروف المقام التاريخية والأحداث التي كانت تفرضها مناسبة نزول كلّ آية وسورة[56]، مصداقا لقوله تعالى في هذا الشأن: ﴿**وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا**﴾ [سورة الإسراء، الآية: 106]، وقوله أيضا في مطلع سورة هود: ﴿**الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ**﴾ [سورة هود، الآية: 01]؛ أي الكتاب الذي نزل محكم البناء ثمّ فُصّلت آياته بحسب المناسبات التاريخية التي صاحبت فترة نزوله.

يقول "الألوسي البغدادي" في مصنّفه (روح المعاني...) موضّحا ومفسّرا الآية الأولى التي من سورة الإسراء: «...عن ابن عباس قال: نزل القرآن جملة واحدة من عند الله تعالى من اللوح الحفوظ إلى السفرة الكرام الكاتبين في السماء الدنيا فنجّمته السفرة على جبريل عليه السلام عشرين ليلة، ونجّمه جبريل عليه السلام على النبي، صلّى الله عليه وسلّم، عشرين سنة، وفي رواية أنه أنزل ليلة القدر في رمضان ووضع في بيت العزّة في السماء الدنيا ثمّ أنزل نجوما في عشرين، وفي رواية في ثلاث وعشرين سنة، وفي أخرى في خمس وعشرين»[57].

هذه البنية الكلّية الواحدة، غير المجتزِئة، التي يتميّز بها القرآن الكريم تدفع إلى البحث في علاقة كلّ آية بالنصّ كاملا، كما لو كان «...كلمة واحدة، أو جملة واحدة؛ لأنّ الواحد – في الحقيقة – ما لا جزء له البتّة؛ فلا يقبل "التعضية" أي: التقسيم إلى أعضاء قابلة للانفصال، ولا يقبل التحويل والتغيير والتبديل فيما يتألف منه»[58].

وقد أشار إلى هذه الوحدة، تحديدا، مَن قاربوا القرآن بطروحات لسانيات النص والخطاب التي أخرجت البحث اللغوي من دائرة الجملة وضيقها إلى رحابة النصّ، مثلما سبق لمفسّرين ومصنّفين في مباحث علوم القرآن أن أشاروا إلى أنّه كتلة نصّية واحدة بكافّة سوره وآياته، ومن العلماء من اشتغل على مسألة ترابط سوره مثل عمل جلال الدين السيوطي في كتابه (تناسق الدرر في تناسب السور) الذي خلص فيه إلى نتيجة مؤدّاها أنّ القرآن الكريم كلّه سورة واحدة مترابطة من بدايته إلى نهايته، فقد عامل الأصوليون والفقهاء القرآن على أنّه لفظة واحدة، وأنّ كل جزء من هذه اللفظة ينبغي النظر فيه في ضوء علاقته بالأجزاء الأخرى[59].

هذه النظرة الشمولية قد طبعت الفكر الأصولي الإسلامي في تحليله للنصوص الشرعية، وقد ذمّ الله عزّوجلّ من جعلوا القرآن الكريم عِضينَ؛ أي مفرّقًا، وآمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض آخر في قوله: ﴿**وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ، كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ، الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ**﴾ [سورة الحجر، الآية: 89، 90، 91]. يقول أبو حيان النحوي في تفسير عضين: «يقال: عضيت الشيء تعضية فرّقته، وكل فرقة عضة فأصله عضوة»[60]، ممّا يدفع إلى تأكيد القراءة الواحدة غير المُجزّأة لكشف البنية الواحدة للنصّ[61].

شمولية الفعل الكلامي في الخطاب القرآني:

قد يتبادر إلى ذهن القارئ سؤال فيقول: إنّ شمولية النصّ القرآني التي أشرنا إليها تتمّ فعلا، ولكن على مستوى الآيات/والجمل؛ أي على مستوى بنائه النصّي لا على مستوى أفعاله الكلامية.

هذا الحكم ينفيه "سيرل" عن الفعل الكلامي عموما، حيث يؤكّد على عدم وجود تفرقة بين الجملة النحوية والفعل الكلامي في مقاربته الفلسفية للغة بقوله: «...لا وجود لدراستين دلاليتين منفصلتين على نحو حتميّ، دراسةٍ تدور على معاني الجمل، ودراسةٍ مدارها على إنجاز الأعمال اللغوية. فمثلما أنّه جزء من تمثّلنا لمفهوم معنى الجملة أن يكون إلقاؤها الحرفيّ بتلك الدلالة في سياق ما إنجازا لعمل لغويّ، فإنّه كذلك جزء من تمثّلنا للعمل اللغوي أن يكون ثمّة جملة ممكنة (أو جمل) يكون قولها في سياق معيّن بفضل ما لها من دلالة (أو دلالات) إنجازا لذلك العمل اللغوي»[62].

والقرآن الكريم مثل باقي الخطابات اللغوية ينطبق عليه هذا المفهوم، فأفعاله الكلامية ما هي إلا أثر مترتّب عن بنيته الكلامية النحوية، وإنجازيّته واضحة فيه، بل يمكن القول إنّ الخطاب القرآني من بدايته إلى نهايته حافل بالأفعال الكلامية، ولعلّ أوّل آية وأوّل لفظ نزل به الوحي الكريم كان فعلا كلاميّا كامل الإنجاز في قوله تعالى: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**﴾ [سورة العلق، الآية: 01]، والذي جاء بصيغة الأسلوب الإنشائي الطلبي الأمري (اقرأ) المقرون بأسلوب خبري (ربّك الذي خلق)، ممّا يستلزم إجابة واستجابة وامتثالا فوريا من النبي، عليه الصلاة والسلام. كما أنّ آخر آية نزلت هي قوله تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ**﴾ [سورة البقرة، الآية: 281] على رأي كثير من الصحابة والمفسّرين والفقهاء[63]، هي آية إنجازية أيضا وردت بنفس الصيغة؛ الأمر (اتّقوا) المقرون بالخبر (يوما ترجعون فيه إلى الله).

فما من آية من آي القرآن الكريم إلا وتحوي فعلا كلاميّا ما، بل من الآيات ما فيها أكثر من فعل كلامي، ولعلّي أستدل على ذلك بالآية السابعة من سورة القصص، وهي قوله تعالى: ﴿**وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ**﴾ [سورة القصص، الآية: 07]، والتي يوردها

البلاغيون والمفسّرون لما فيها من ظواهر بلاغية، حيث تضمّنت ثمانية أفعال كلامية هي كالآتي:

- ❖ خبران: [وأوحينا إلى أمّ موسى] وقوله [فإذا خفت عليه] لعلمه المسبق بخوفها عليه.
- ❖ أمران: [أرضعيه] و [ألقيه].
- ❖ نهيان: [ولا تخافي] و [ولا تحزني].
- ❖ بشارتان: [إنّا رادّوه إليك] و [وجاعلوه من المرسلين][64].

ومثل ذلك قوله تعالى من سورة الأنعام: ﴿**قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ [سورة الأنعام، الآية: 151]، وهي من الآيات الجوامع في القرآن الكريم للأحكام والتشريعات، وقد تضمّنت العديد من الأفعال الكلامية؛ من أخبار وأوامرَ ونواهٍ، إضافة إلى صيغة الترجّي. وقوله: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾ [سورة النحل، الآية: 90]، وهي أيضا آية تصنّف ضمن الأوامر والنواهي الجامعة لما تشمله من جميع أقسام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

كما يشتمل القرآن على القوة الإنجازية الحرفية والقوة الإنجازية المستلزمة؛ أي الفعل الكلامي المباشر وغير المباشر بتعبير سيرل، وأضرب مثلا على ذلك بقوله تعالى من آخر سورة البقرة: ﴿**وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ**﴾ [سورة البقرة، الآية: 285]. ففي الآية الكريمة فعلان كلاميان إنجازيّان هما:

- فعل كلامي مباشر:

هو الأمر الذي نستدلّ عليه بقرينة بنوية هي صيغة المصدر النائب عن فعله (غفرانك)؛ أي (اغفر)، وهي إحدى صيغ الأمر عند البلاغيين.

- فعل كلامي غير مباشر:

وهو الدعاء الذي دلّ عليه السياق القرآني في الآية، إذ لا توجد أي قرينة بنوية في هذه الجملة القرآنية تدلّ على أنّ غرض المؤمنين من صيغة الأمر هنا هو الدعاء بالمغفرة سوى قرينة السياق، حيث خرجت الآية بحرفيتها إلى هذا الفعل الإنجازي غير المباشر، لأنّ صيغة الأمر فيها صادرة من أدنى إلى أعلى لتفيد الدعاء.

مع التنبيه إلى وجود مبدأ حواري تداولي آخر في بداية الجملة هو **مبدأ التأدّب** في الكلام من خلال الصيغتين الخبريتين "سمعنا وأطعنا"، تأدّبا من المؤمنين مع الله عزّ وجلّ قبل التوجّه إليه بالدعاء.

وفي موضع آخر يمكن أيضا الاستدلال به على الفعل الكلامي غير المباشر هو حكاية قصة النبيّ إبراهيم - عليه السلام - مع أبيه آزر حين دعاه إلى ترك الأصنام وتوحيد الله عزّ وجلّ قائلا له: ﴿**يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا**﴾ [سورة مريم، الآية: 42، 43، 44].

حيث نلاحظ أنّ الآيات الكريمة تتضمّن أربعة أفعال كلامية مباشرة هي:

1- النداء: للفت انتباه المتلقّي (الأب)، ودلّت عليه أداة النداء (يا) والمنادى، مع تكرار النداء ثلاث مرّات وفي مطلع كلّ آية للتأكيد.

2- الاستفهام: ودلّت عليه الآداة (لِم)، وهو بدوره استفهام إنكاري خرج من حرفيته الكلامية إلى إنجازية أخرى قد تكون التنبيه إلى العمل الخاطئ مع الإشفاق؛ إشفاق الابن على أبيه الذي كان متأدّبا معه رغم أنّه يدعوه إلى ترك الشرك، وهي وصية الله عزّ وجلّ لعباده بأن يحسنوا إلى والدِيهم ولو كانوا مشركِين في قوله: ﴿**وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا**﴾ [سورة لقمان،الآية:15].

3- الأمر: ودلّت عليه صيغة (افعل) في اتّبِعْنِي، وجواب الأمر (أَهْدِكَ).

4- النهي: دلت عليه (لا الناهية) المقرونة بالفعل المضارع تعبد.

غير أنّ كلام سيّدنا إبراهيم، عليه السلام، فيه منجز كلامي آخر أوّلي ممثَّل في فعل كلامي غير مباشر هو (النصح والإرشاد) لأبيه، والذي دلّ عليه أيضا سياق الآيات والتخاطب.

ومن خلال هذين المثالين نلحظ أنّنا أمام مستويات دلالية ثلاثة لأفعال الكلام هي:

- المحتوى القضوي: وهو مجموع المركبّات الإسنادية والإحالية التي تتكوّن منها الآيات الكريمة.

- القوة الإنجازية الحرفية (مباشرة): وتتمثّل فيما يتضمّنه المثالان؛ الأمر في المثال (1)، والنداء والاستفهام والأمر والنهي في المثال (2).

- القوة الإنجازية المستلزمة (غير مباشرة): الدعاء في المثال (1)، والنصح والإرشاد في المثال (2).

وما بين هذه الآيات والمواضع المذكورة من باب التمثيل كثيرٌ من المتواليات الإنجازية التي تتفاعل كلّها لخدمة فعل كلامي كلّي يهدف الخطاب القرآني إلى إنجازه، وهو (هداية البشر) ودعوتهم إلى التوحيد واعتناق الإسلام، وهو ما يؤكّده القرآن نفسه في مواضع عديدة منه يصف فيها الله عزّ وجلّ كتابه وكلامه بأنّه كتاب هدى وتذكير.

حيث يقول تعالى في مطلع سورة البقرة واصفا كتابه: ﴿**ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ**﴾ [سورة البقرة، الآية: 02]، ويقول تعالى: ﴿**هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ**﴾ [سورة آل عمران، الآية: 138]، ويقول أيضا: ﴿**هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾ [سورة إبراهيم، الآية: 52]، ويقول في موضع آخر: ﴿**وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ**﴾ [سورة النمل، الآية: 77]، ويقول أيضا: ﴿**هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ**﴾ [سورة الجاثية، الآية: 20]، ويقول على ألسنة الجنّ لما سمعوا القرآن: ﴿**وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا**﴾ [سورة الجن، الآية: 13]، وكلّها آيات قرآنية، وغيرها، تؤكّد الهدف الأسمى من تنزيل القرآن الكريم وهو هداية البشر، ما يمكن أن يكون فعلا كلاميّا إنجازيا كلّيا.

فالقرآن الكريم بنية استدلالية إقناعية تمجّ بالأفعال الكلامية لتؤدّيَ وظيفةً حجاجية محدّدة[65]، بما تحويه هذه البنية من تقريرات وتوجيهات ووعديات وتصريحات بتصنيفات جون سيرل، والتي تهدف كلّها إلى تحقيق هذه الوظيفة المثمّلة في دفع البشر كافّة وإقناعهم بالإيمان بالرسالة السماوية الجديدة التي تدعو إلى التوحيد، فهو «...يتوجّه

إلى وعي المخاطَب لتغيير شأنه وحاله والتأثير فيه وإقناعه بالمضمون الجديد والرسالة الجديدة»[66].

إذًا؛ يمكن الخلوص إلى نتيجة مفادها أنّ كلّ ما يكتنزه الخطاب القرآني بين جوّانيّه من متواليات قوى كلامية إنجازية مختلفة، ومن آيات العقيدة والتوحيد، وآيات الأحكام والتشريعات، والتذكير والقصص...إلخ، هدفه إنجازيّ واحد، من أوّله إلى آخره، مجسَّد في فعل كلامي كلّي هو الهداية والإرشاد.

ويمكن إدراج هذا الفعل، في نظري الخاصّ، ضمن فئة التوجيهات الكبرى من أفعال الكلام، رغبةً في أن يفعل المخاطَبُ والمستمِعُ للخطاب الفعلَ المُوجَّه إليه[67]، وما بقية الأفعال الكلامية سوى أفعال جزئية خادمة لهذا الفعل الكلّي ومساهمة في إنتاج دلالته.

خاتمة:

تشغل نظرية أفعال الكلام مجالا معرفيّا هامّا ضمن الدرس الألسني والتداولي المعاصر بفضل مقاربتها الجادّة للظاهرة اللغوية بوصف هذه الأخيرة تمثّلا وانعكاسا للنشاط الإنساني الذهني والاجتماعي، وبفضل تأسّسها على قاعدة فلسفية لغوية متينة أسهم فلاسفة معاصرون في التأسيس لها. من هذا المنطلق جاءت هذه الدراسة مستعيرة من هذه النظرية إجراءاتها لمقاربة إنجازية الخطاب القرآني وَفْق نظرةٍ شموليّة تروم الكشف عن الفعل الكلامي الكلّي فيه، إذ تشكّل إمكانية تطبيق مقولات الدراسات اللسانية الحديثة، وخصوصا المقاربة التداولية، على المدوّنة القرآنية رهانا قائما وسؤالا مستمرا وملحّا على دارسي اللغة. ويمكن تلخيص أهمّ ما حملته الدراسة من نتائج بحثية عبر النقاط الآتية:

- تعدّ المقاربة التداولية للغة مقاربةً هامّة لأنّها تدرس الظاهرة اللغوية أثناء الاستعمال الفعلي لها في التخاطب، ويعدّ التحليل التداولي للخطاب تحليلا جادّا ومتخصّصا واسعَ الإجراءات، غير أنّه في الوقت نفسه مُربِك شيئا ما لسعة هذه الإجراءات والمصطلحات والمفاهيم، ولاشتراك التداولية بين عدة حقول معرفية.
- نشأت نظرية الأفعال الكلامية في رحب الدراسات الفلسفية اللغوية، ومؤسّسوها الأوائل جميعهم فلاسفة لغويون وفلاسفة عقل.

- إنّ اتّجاه البحث في هذه النظرية يتأسّس على الاهتمام بالأعمال التي تُنجز من خلال أقوال المتكلّمين وفق مبدأي السياق وقصد المتكلّم، من أعمال لغوية مباشرة وغير مباشرة، وأيضا يتأسّس على الاهتمام بفعل التأثير الناتج عن هذه الأقوال.
- لم يفرّق البحث عند تناوله للقرآن الكريم بالدراسة والتحليل بين كونه خطابا أو نصّا، بل وصفه بهما معا لانفراده بهذه السمة.
- يشكّل الخطاب القرآني كليّة واحدة ووحدة بنائية وتواصلية محكمة الأركان لا يمكن معها فصل أي سورة أو آية عن سياق النصّ العام.
- يحفل الخطاب القرآني بالقوى الإنجازية الحرفية والمستلزَمة، وبكثير من الأفعال الكلامية المباشرة وغير المباشرة، من أوّله إلى آخره كما ورد في هذا البحث، والذي قارب مفهوم الفعل الكلامي الكلّي في القرآن الكريم.
- خَلُص البحث إلى أنّ الخطاب القرآني كاملا، بما يحتويه من أفعال كلامية جزئية، لديه هدف إنجازيّ واحد وكلّي هو هداية البشر وإرشادهم ودعوتهم إلى التوحيد، بما يشكّل فعلا كلاميّا كليّا شموليا فيه.
- يندرج هذا الفعل الكلامي، والله أعلم، ضمن فئة التوجيهات الكبرى وفق تصنيف سيرل الخماسي لأفعال الكلام.

وبالتالي، ومن خلال هذه النتائج الجزئية، فإنّنا نخلص إلى نتيجة عامّة مفادها أنّ القرآن الكريم له من المرونة اللغوية ما يُهيّء للباحث مقاربتَه في ضوء ما يطرحه الخطاب التداولي ونظرية أفعال الكلام من مفاهيم ومقولات بشكل ملائم يستجيب لخصوصيات هذا النصّ المقدّس، على أنّ هذا الوصف الأخير له يجعل مِن مثل هذه المقاربات مقارباتٍ حذِرة لأنّنا لا نتعامل هنا مع نصّ بشري مفتوح أمام حرية التأويل والرأي.

الهوامش:

[1] ينظر: جورج يول، 2010م، التداولية، ط 1، بيروت، الدار العربية للعلوم ناشرون، الرباط، دار الأمان، ص 128.

[2] ينظر: المرجع نفسه، ص 128.

[3] ينظر: عمر بلخير، 2013م، مقالات في التداولية والخطاب، تيزي وزو - الجزائر، دار الأمل، ص 63.

[4] ينظر: نعمان بوقرة، 2004م، المدارس اللسانية المعاصرة، القاهرة، مكتبة الآداب، ص 189.

[5] ينظر: هواري بلقندوز، 2008 - 2009م، التداوليات النصية - مقاربة لفهم الخطاب وتأويله -، أطروحة مقدّمة لنيل درجة دكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة وهران، ص 47.

[6] ينظر: جمال حمود، 2011م، المنعطف اللغوي في الفلسفة المعاصرة، ط 1، الجزائر، منشورات الاختلاف، الرباط، دار الأمان، ص 18. نقلا عن: محمد فهمي زيدان، في فلسفة اللغة، ص 249.

[7] المرجع نفسه، ص 17.

[8] عمارة ناصر، 2009م، الفلسفة والبلاغة - مقاربة حجاجية للخطاب الفلسفي -، ط 1، الجزائر، منشورات الاختلاف، الجزائر، بيروت، الدار العربية للعلوم ناشرون، ص 67.

[9] ينظر: جون سيرل، 2009م، القصدية - بحث في فلسفة العقل -، ترجمة أحمد الأنصاري، بيروت، دار الكتاب العربي، ص 204.

[10] جون سيرل، 2015م، الأعمال اللغوية - بحث في فلسفة اللغة -، ترجمة أميرة غنيم، ط 1، تونس، منشورات دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، ص 19.

[11] ينظر: هواري بلقندوز، المرجع السابق، ص 50.

[12] ينظر: عمارة ناصر، المرجع السابق، ص 67-68.

[13] المرجع نفسه، ص 68.

[14] ينظر: لودفيج فتجنشتاين، 2007م، تحقيقات فلسفية، ترجمة وتقديم وتعليق عبد الرزاق بنّور، ط 1، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، ص 197.

[15] ينظر: ميلية مرابطين، جانفي 2014م، فلفسة المعنى عند لودفيغ فتجنشتاين من خلال نظريتي الرسم المنطقي والألعاب اللغوية، العدد التاسع، تونس، مجلة مخاطبات، تونس، ص 158.

[16] ينظر: جمال حمود، المرجع السابق، ص 93.

[17] ينظر: محمد مجدي الجزيري، 1986م، المتشابهات الفلسفية لفلسفة الفعل عند فتجنشتاين، د.م، دار آتون للتوزيع، ص 42.

[18] المرجع نفسه، ص 45.

[19] لودفيج فتجنشتاين، المرجع السابق، ص 136.

[20] ينظر: جون لانغشو أوستين، 1991م، نظرية أفعال الكلام العامّة - كيف ننجز الأشياء بالكلام -، ترجمة عبد القادر قينيني، الدار البيضاء، دار أفريقيا الشرق، ص7.

[21] بدر الدين بن التريدي، د.ت، الفعل: زمنه وإعرابه وتصريفه، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، ص5.

[22] ابن منظور، د.ت، لسان العرب، تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرين، القاهرة، دار المعارف، مجلد5، جزء 38، ص 3438. مادة (فعل).

[23] الفيروزآبادي، 2005م، القاموس المحيط، تحقيق مكتب تحقيق التراث بمؤسسة الرسالة، ط 8، بيروت، مؤسسة الرسالة، ص 1043، مادّة (فعل).

[24] الشريف الجرجاني، 1985م، التعريفات، بيروت، مكتبة لبنان، ص 175.

[25] عمرو بن عثمان سيبويه، 1988م، الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، ط 3، القاهرة، مكتبة الخانجي، ج1، ص 12.

[26] عزت قرني، د.ت، الذات ونظرية الفعل، القاهرة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، ص 162.

[27] فرانسواز أرمينكو، د.ت، المقاربة التداولية، ترجمة سعيد علوش، بيروت، مركز الإنماء القومي، ص 9.

[28] جون سيرل، العدد 1812، 2011م، العقل واللغة والمجتمع - الفلسفة في العالم الواقعي -، ترجمة صلاح إسماعيل، ط 1، القاهرة، المركز القومي للترجمة، ص 171.

[29] ينظر: دومينيك مانغونو، 2008م، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ترجمة محمد يحياتين، ط 1، الجزائر، منشورات الاختلاف، بيروت، الدار العربية للعلوم ناشرون، ص 7. وينظر: يحي رمضان عبد التوّاب، 2007م، القراءة في الخطاب الأصولي - الاستراتيجية والإجراء -، ط 1، عمان، جدارا للكتاب العالمي، إربد، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، ص 268.

[30] ينظر: جون لاينز، 1987م، اللّغة والمعنى والسياق، ترجمة عباس صادق الوهاب، ط 1، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، ص 189.

[31] جون سيرل، الأعمال اللغوية، ص 40-41.

[32] دومينيك مانغونو، المرجع السابق، ص 7.

[33] مسعود صحراوي، 2005م، التداولية عند العلماء العرب - دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللّساني العربي -، ط 1، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، ص 40.

[34] ينظر: عمارة ناصر، المرجع السابق، ص 68.

[35] ينظر: يحي رمضان عبد التوّاب، المرجع السابق، ص 292.

[36] فرانسوا أرمينكو، المرجع السابق، ص 60.

[37] عمر بلخير، 2007م، تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، ط 1، الجزائر، منشورات الاختلاف، ص 155. وينظر، فيليب بلانشيه، 2007م، التداولية من أوستين على غوفمان، ترجمة صابر الحباشة، ط 1، اللاذقية، دار الحوار للنشر والتوزيع، ص 53 وما بعدها.

[38] ينظر: جون أوستين، المرجع السابق، ص13 وما بعدها. وينظر آن ربول وجاك موشلار، 2003م، التداولية اليوم - علم جديد في التواصل -، ترجمة سيف الدين دغفوس ومحمد شيباني، ط 1، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، ص 29-30.

[39] ينظر: جون أوستين، المرجع نفسه، ص 91 وما بعدها.

[40] أحمد محمود نحلة، 2006م، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ص 44.

[41] ينظر: أوستين، المرجع السابق، ص 123 وما بعدها. وينظر: مسعود صحراوي، المرجع السابق، ص 41-42-43. وينظر: عمر بلخير، المرجع السابق، ص 158.

[42] ينظر: محمود أحمد نحلة، المرجع السابق، ص 47.

[43] ينظر: آن ربول وجاك موشلار، المرجع السابق، ص 32.

[44] John searle, 1982, Sens et expression - études de théorie des actes du langage -, traduit par Joëlle Proust, paris, les Editions de minuit, p 52...57. وينظر: جون سيرل، العقل واللغة والمجتمع، ص214 وما بعدها.

[45] ينظر: آن ربول وجاك موشلار، المرجع السابق، ص 267.

[46] John searle, op.cit, p 71

[47] Ibid, p 71...75 وينظر: آن ربول وجاك موشلار، المرجع السابق، ص 59.

[48] محمود أحمد نحلة، المرجع السابق، ص51.

[49] ينظر: المرجع نفسه، ص 51.

[50] فرانسواز أرمينكو، المرجع السابق، ص 72.

[51] جون سيرل، الأعمال اللغوية، ص 41.

[52] فان دايك، النص والسياق، ص 310.

[53] المرجع نفسه، ص 316.

[54] ينظر: عبد الحليم بن عيسى، 2012م، الفعل الكلامي النصّي - قصيدة (وتعطّلت لغة الكلام) لمفدي زكريّا نموذجا -، ضمن كتاب التداولية في البحث اللغوي والنقدي، تحرير بشرى البستاني، ط 1، لندن، مؤسسة السياب، ص 321.

[55] ينظر: المرجع نفسه، ص 311.

[56] للاستزادة يرجع في فهم ذلك إلى ما ورد في مصنّفات علوم القرآن والتفاسير حول نزول القرآن الكريم.

[57] الألوسي البغدادي، د.ت، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، د.ط، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ج 15، ص 188.

[58] طه جابر العلواني، 2006م، الوَحدة البنائية للقرآن المجيد، ط 1، القاهرة، مكتبة الشروق الدولية، سلسلة دراسات قرآنية 3، ص 12.

[59] ينظر: محمد محمد يونس علي، 2006م، علم التخاطب الإسلامي - دراسة لسنية لمناهج علماء الأصول في فهم النصّ -، ترجمة محمد محمد يونس علي، ط 1، بيروت، دار المدار الإسلامي، ص 86.

[60] أبو حيان الأندلسي، 1993م، تفسير البحر المحيط، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وآخرين، ط 1، بيروت، دار الكتب العلمية، ص 444.

[61] ينظر: عبد الرحمن بودرع، 2013/02/16م، في لسانيات النص وتحليل الخطاب - نحو قراءة لسانية في البناء النصّي للقرآن الكريم -، المؤتمر الدولي لتطوير الدراسات القرآنية، السعودية، جامعة الملك سعود، ص 26.

[62] جون سيرل، الأعمال اللغوية، ص 41.

[63] ينظر: أبو الفداء إسماعيل بن كثير، 1997م، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد السلامة، ط 1، الرياض، دار طيبة، المجلد 1، ص 720-721.

[64] ينظر: الطاهر بن عاشور، 1984م، تفسير التحرير والتنوير، د.ط، تونس، الدار التونسية للنشر، ج 20، ص74-75.

[65] ينظر: محمد عديل عبد العزيز علي، 2016م، الفكر اللساني التداولي - قراءة في التراث والحداثة -، د.ط، إربد، عالم الكتب الحديث، ص 189.

[66] عبد الرحمن بودرع، المرجع السابق، ص 17.

[67] جون سيرل، العقل واللغة والمجتمع، ص 183.

*** *** ***